أزمة التطور العربي

بقلم برهان غليون

بانبثاق التكون الشعبي للمجتمع المعاصر ، ترسمت في الافق ، خطوط منطلقات واهداف ثورية جديدة ، بما تشتمل عليه من مقومات فكرية وثقافية وما تحمله من نوازع تاريخية ، وسياسية ، أكدت من جديد ، اهداف التطور الحديث ، وشبكته بمنطق الاحداث الاجتماعية المتصاعدة في نسغ الازمنة ، مكونة الواقعة ، طفرة لانبثاقة آنية ومستمرة بنفس الوقت ، واقعة تشتق من التاريخ ، القيمة والمقياس ، باحتضانها الماضي والمستقبل ، الامكانية والخلق ، الفعل والحركة . ومن ذلك التكون يمكن للثورة ، ان تكتسب مضامين اجتماعية اخصب ، تغني تجربتها وحسها الحضاري ، وتفتح للتاريخ اطلاقية قيمها الحرة ، ومنها يمكن للثوري ان يتابع ازمة نشوئه وتطوره .

وان الشك في جدوى الحاضر ، المتضمن صوت الامكان ، يعطي المستقبل قيمة الواقع الثوري ـ واقع الصيرورة ـ الدائم ، الوجه السرمدي لكل تحول ، حين يبدأ الزمان الخلق ، فيعمق التجربة ، ويبني المأساة ، يوحد العاطفة في معركة الخلق بلانهاية ، على امل التحقيق الكلي ، والاكيد ، الذي هو امل فحسب ما دامت الثورة تعني الاستبطان البدئي لمشاكل الفرد ، ـ كمرحلة للوعي الداخلي ـ من خلال تبعية غيبية لجماعية اولى تمثل عمل واقعات العصور البائدة التي يتمثل الفرد آياتها ، دونما شك او يقين ودونما اختيار .

انها تعني تطهير الشخصية ، ومن ثم ادخالها في التاريخ بفكرة جديدة واقع جديد ، امل جديد ، ومنهج لفهم هذا الواقع يختلف تمام الاختلاف عن سابقه فيما يحمله من حلول جذرية مخالفة في اهدافها التطبيقية لحلول العهد القبلي ـ للمشكلات الاجتماعية والحضارية عامة . وخلقية تكوينية تمهد لانبثاق الانسان ، من جديد وما هيته ، انسان العصر . ومن هنا يمكننا القول ، بان الثورة كانقلاب فكري ايديولوجي ، وفي محاولتها ابداع صيغة جديدة للوجود ، امكانية للكشف عن طبيعة التاريخ بصورة عامة ـ كظاهرة مدركة من خلال مشاركتها في التحقق الحضاري ، مشاركة فعالة ورئيسية ، تؤسس للواقعة وتربطها بحدودها الطبيعية ، في كل جماعة ثورية معلنة بذلك عن ما هيتها الاصيلة في علاقاتها تلك .

والثورة بالتالي ، كانقلاب حضاري ، مرتبط بالتاريخ ككل ، هي محاولة لايجاد عنصر التوازن بين التطور من جهة والقيم من الجهة الاخرى . ذلك التوازن تفقده الثورات اثناء سقوطها فتفقد بذلك محورها الذي تشتق من خلاله النموذج ، تشتق ـ مبرر وجودها ، مما يعرضها في النهاية الى صدمات عنيفة ، والى اضطراب مستمر ، حتى يعود الحوار مرة اخرى بين التطور والقيم، هذا الحوار الذي يعتمد بالدرجة الاولى على بقاء التوتر المخصب والايجابي بينهما في عمق الشخصية الثورية .

هكذا كانت الثورة ، انبثاق من داخل ، يستقطب الملامح البكر ، الوجوه الجوهرية ، ويبدد الازمة ، يفادي تربة الخلق البدئية ، بمعطيات الحرية والواقع ، في حدود التاريخ المتأصل ، كصيغة اساسية لنمو العلاقات المختلفة لكل جماعة ، مع ارتباطها بتربتها الحقيقية ، التي تحدد قيمة الواقعة من التكون الاجتماعي ، ومدى اصالة ذلك التكون ، في جميع مراحل التاريخ ، المندفع نحو تكامله ، في ثورة الحرية ، رغم تعرضاته لتشكلات خادعة تفرضها ملابسات ظرفية ، في بقعة ما من العالم ، تنشر بعض الضباب الذي ما يلبث حتى يتمخض عن تربة اصيلة . تلك هي حقيقته ، ومدار تكوينه .

هذه المحاولة للوعي الداخلي ، يطلقها الفكر الثوري ، كخطوة اولى نحو الوصول الى ماهية التطور الثوري للمجتمع ، والى خط نضاله الشامل والمتكامل خلال مراحل التاريخ . ثم انها تشتمل على النزوع الاصيل الى اعادة الجدل من اجل التكون والخلق ، بين الواقع والامكان ، الفرد والتاريخ ، حيث يمكنه استشراف ذرى جديدة في بنية التحقق الانساني ، في براءته وطهره ، في ملامحه البدائية الانقى والاخصب . ذلك الاستشراف الذي سيبدع فيما بعد شواطئه اللاهبة ، كميدان جديد لتحققات جديدة ، تعيد للانسان الحر وجهه المتمثل مرارة التجربة، وحرية الخلق . !

لهذا كان العمل الثوري ينطوي في ذاته ، على اعتراف ضمني ، حتى بالواقع الفاسد الذي يضعه هدفا له في مرحلة الرفض ، مرحلة التدمير . وهو الى جانب ذلك ، صيغة فكرية تحتوي على سر تبرير هذه الاعمال الثورية .. انه الفداء الحقيقي لها ، بما يقدمه للوعي الثائر ، من دوافع متجددة وبما يعكسه من معان خصيبة ، تبني تجربته ، فيتوهج بعمق الفرح والمأساة . عمق الفكرة والعاطفة .

واذا كان لا بد للثائر من هذا المبرر ، الا انه قد يمضي من اجل التبرير ، الى مدى ابعد ، في طريق ، الارهاب من جهة والقتل الجماعي من جهة اخرى . فاذا كان لا بد من الثورة حقا ، فاية قيمة للواقع ؟ ومن ثم الى اى مدى يمكن لجزئيات هذا الواقع ان تتضمن قيمة ، او مغنى في الحرية والاستقلال ، والكينونة نفسها ؟...

ان المشكلة تتخذ صيغة ، ما دام الواقع الفاسد ، لا يملك اي مبرر ، فانه لا يملك الحق في الوجود ، وان وجودي كثوري ، مرتبط بالغائه كواقع فاسد . ومن هنا يبدأ محور جديد في التكون الثوري ، تحت اعتبارات مسبقة عن مكونات الواقع ـ حيث يمكن للقتل نفسه ان يبرر .!

ويمكن للفرد الثوري ان يصبح جلادا ، بمعنى من المعاني ، الا ان المقياس القيمي لكل ثورة ، لا يوجد في الواقع ، وانما هو مرتسم في اهداف الثورة . ومن اجل الوصول الى تلك الاهداف لا بد من السير فوق جماجم البشر حتى يتحقق القانون . في هذا السير نفسه ، وبهذه الطريقة التي يتبعها من اجل ذلك ، يفقد العنصر الثوري مبرر وجوده ، ويصبح بالنسبة للثورة ذاتها واقعا فاسدا ، لا بد من هرسه ، بعد ان فقد مبرره في الغاية الثورية ، ففي الثورة لا يمكن فصل الهدف عن التطبيق ، وفي اي مرحلة من مراحل الثورة ، اذا كان في الثورة ارادة التبرير الاجتماعي ، والغاية القانونية .

ان الثورة هي المطهر . وهي التلوث باختيار ، حين يقبل الانسان التحدي ، ساعة قبول العالم . وهي بالتالي انكار مبدئي ، يتضمن في نهايته الاقرار بالقيمة ، والاعتراف . والفرد الباحث عن الاعتراف غالبا ما يجد في القتل ازمته ، فالحقيقة انه ـ وكمرحلة مبدئية ـ يعمل لاخضاع العالم ، للسيطرة الكلية . والبديل هو في ذلك الخضوع الذي يعني في ظاهره الاعتراف بالقيمة ، بالوجود الاخر ـ وجود الثوري ـ الا انه يتضمن الى جانب ذلك ، نوعا من الانكار ، الذي يتسلح به الثوري تجاه العالم ، والاخرين ، لكنه ما يلبث ان يكتشف فجأة ، وحدته ، وغرابته ، انه وحيد وبلا مبرر تجاه كل العالم ، فالقتل وان تضمن ظاهريا نوعا من الشعور بالخطورة ، والقيمة ، الا انه لا يعني اخيرا ـ الا القضاء على عنصر من عناصر الاعتراف المدعوة بطريق العالم . فالقضاء على الاخر لا يعني في الحقيقة سوى القضاء على الانا ذاتها ، وتضييق مجالها الوجودي ، وبشكل انعكاسي ، حيث لن يستطيع الانسان ان يكون حرا لحظة واحدة . وحيث يجد نفسه وجها لوجه امام مصيره .

ان انطلاق الثورة من مقدمات صحيحة ومنطقية ، لا يمنعها من السقوط في منتصف الطريق ، عاجزة حتى عن حماية نفسها من نفسها . انها تبدأ بالتفتح ضمن أطرها الفكرية المثالية ، ثم لا تلبث ان تنتهي الى الارهاب ، او التسليم ، او القتل ، وبذلك ينطوي الثوري على الجلاد والضحية معا ، ويبدأ من تلك اللحظة ، في التنقيب عن مصيره كانسان في العالم ، الشيء الوحيد الذي بقي له .

انها نفس الازمة التي يواجهها النمو العربي ، حيث يضطر غالبا بعد بذل جميع الجهود لاعادة النظر والتبرير ، الى التقهقر والتراجع امام منشآت الواقع الفاسد . ومن هذه الحركية ، تنشأ معظم مشاكل التطور العربي ، حيث سيضطر للبدء دائما من الصفر وبلا نتيجة ، يحاول ان يلتقي بذاته المشتتة ، ويلم شعثه . لقد فقد ذاته ففقد وعيه تزمنه ، حسه القيمي ، واقعه ، ثم فقد اهم خطوط المعركة المصيرية ، التي يخوضها تجاه الواقع الفاسد ، في حين اتخذ الصراع الثوري جسد حرباء سياسية ، لا يمكن للشعب استشفاف اي من خيوطها الحقيقية ، وبذلك انعدم اخر يقين له في استرجاع سيادته ، قيمة ووجوده بالذات .

وهكذا تكون نموذج ثوري جديد ـ في واقعنا ـ يشتمل على بعض القياديين تجاه هدف مجهول غالبا ، ومعروف في احيان قليلة ، عبر الصراع المصيري . وفي الجانب الاخر توجد الجماهير التي بدأت في البحث عن ذاتها ، تجمعها تجربة ثورية اخرى وفي اتجاه مختلف غامض المعالم . وكنتيجة لذلك تضخمت الهوة بين الجماهير والقياديين الذين اضطرتهم الظروف اخيرا الى مخاطبة هذه الجماهير من خلال الشعارات المرددة دائما والمحملة باكبر زخم ثوري جدير بالثقة ، والتأييد . وبدلا من ان يستطيع الثوري توجيه دفة مصيره فان الظروف تساعد على تغطية اهدافه الحقيقية ، وتضطره في اكثر الاوقات الى الاتجاه المعاكس . وان عدم توضح خط الصراع الحقيقي ، للجماهير ، فكريا ، وسياسيا ، يرمي هذه الجماهير في الظل ، بعيدا عن كل صوت ثوري حقيقي ، بين يدي التوجيه العميل احيانا ، والرجعي في الاحيان الاخرى .

وان مرحلة التعليب الثوري التي تعانيها بعض الجماهير المؤيدة ، جعلتها تتجه بأنظارها نحو الانقلاب المصلحي ، كل لحظة ، معمقة بذلك جذور المأساة التي تعاني فوضاها ساعة فساعة .

ان تلك الازمة التي تستمد جذورها وتتغذى من مآسي المجتمع العربي هي في الحقيقة ، ازمة كل ثورة ، لا تعي خط نضالها الحقيقي ، بكافة جماهيرها وقادتها ، وهي مأساة الثورة ، حينما تفقد ارتباطاتها الجماهيرية ، وتسير بعيدا عن مصالح الشعب باجمعه .

ان النموذج الثوري الذي غذته الاحقاد ، والذي رافق تكونه حركة مريبة ، عادت بكثير من الانقلابيين الى افكارهم العتيقة ، والمحزنة في مداخل غامضة ، من التاريخ ، الذي تخطاها في سبيل الحضارة ، ـ هذا النموذج لا يمكنه سلاحه ، استرجاع حلم ضائع يفصل الجماهير عن احداثها ومصالحها ليعمي في عينيها الطريق ، نحو الحرية الكاملة ، وليحاول فصلها نهائيا عن مصيرها ، بالغاء مستقبلها التاريخي المتطور ، وزرع مستقبل اخر هو في الحقيقة ، اقل من واقع فاسد . وسيكون للتحقق الثوري الفعال صيغته اللانهائية في المعركة من اجل الالتقاء مرة اخرى مع الحضارة ، فحين تنفصل الثورة عن التاريخ ، اي معنى ثوري يبقى لها ؟.

ان ارتباط الثورة بالتاريخ ، مشكلة المرحلة الحضارية ، هو ارتباط الفعل بالقيمة ، ذلك الارتباط الذي يمهد لصياغة الثوري والانسان بعدئذ صياغة جديدة تنطوي على الاعتراف بالتطور ، كما تساعد الفرد على فهم ارتباطاته بالعالم ، بالزمان ، والحضارة من الجهة الثانية . فاذا انتهت الثورة الى ان تعيد مرحلة من مراحل التاريخ البائد ، فانها لا تقرب بذلك الا نهايتها ، حين تسلخ عن ذاتها ، كل معنى او تبرير ثوري اطلاقا .

فالثورة تفهم ، من حيث هي ارتباط تاريخي بعنصري ، الفكرة والواقع ، وان محور هذا الارتباط هو التاريخ ذاته ، خلال تحولاته ، كحبل رئيسي يشد مصير الانسان في العالم . ونحن بانطلاقنا من هذه النقطة يمكننا استنتاج كل مقياس للتقييم الوجودي ، من هذا الارتباط ككل . ومنه ايضا نستطيع ان ندرك ونرى ، كما يجب حدود وطبيعة الظاهرة ، فنعاني مرارة الخلق ، وحرية التحقق . فهل يتفجر الخلق مرة اخرى من السقوط مسيجا بحلم الثورة الحقيقية ، الثورة المنبثقة عن ازمة المصير الذاتي ، والنابعة من الضمير العربي نفسه . انها لا تحلم بالخلاص ، لانها لا تؤمن بسقوطها ، كمرحلة فاسدة ، وبؤرة للشر ، لكنها تقدسه وتتجاوزه الى مرحلة التقييم الثوري ـ وايجاد قيمة ، مرحلة التكون الحقيقي ، معانقة من جديد خلال التاريخ ، مصيرها الفعلي ، وملتحمة من

خلال الواقع بتربة مأساتها واصالتها ، تربة خلقها ، وكينونتها . فالثورة تبدأ من المعاناة ، وهي في تصاعدها عبر الوجود تحلم بأن تكون ، حرية وعدالة واخاء .

والثورة التي تستنفد كل طاقاتها في الهدم ، ثم مرحلة التعمية الدينية بطقوس تقديس تلك المنجزات ، دون ان تحلم بالتأصيل الايجابي لدى وعي الجماهير ، والتحول الى منجزات اكثر ايجابية ، تمس كيان الفرد ، فتبدع قيمه في المستوى الاخلاقي ، والاجتماعي والثوري — لا تلبث أن تتهافت الى وضع محافظ ، وضع يجمد التاريخ عندما يحاول ايقافه ، للمحافظة على وجوده هو ، ومن ثم تقع في عداء التطور الثوري الحقيقي ، فتضطر الى معاكسة اهدافها الاولى ، وبالتالي معاكسة الجماهير ، رصيدها النضالي ، وهي اخيرا بحاجة للثورة على نفسها ، من داخل تقتحم العقبة ، لتتابع مجراها الحقيقي ، بالتصاقها من جديد بجماهيرها ، بلحمهم ، ودمهم . فالثورة ، ليست غاية في ذاتها ، وليست حقيقة الانسان ، انما الانسان هو الحقيقة الاولى وهو الهدف . اما حينما تصبح الثورة هدفا في ذاتها ، فان القتل نفسه يصبح مبررا .

وحتى الحقيقة لا يمكن ان تكون غاية في ذاتها الا عندما تنتفي الثورة ، فالثورة تزيل الحدود بين الغاية والوسيلة ، انها تجعل منهما شيئا واحدا ، والا فانها ستقع في الارهاب والتقديس الديني ، المرتبط لهدم حرية الفرد ، وكيانه .

ومن هذه النقطة يمكننا ان ننطلق في فهم قضية الثورة ، والقيم النابعة منها ، فالقيمة الاساسية للثورة ، هي حقيقتها ، كتجربة لاعادة الحوار بين التطور والقيم في بنية التحقق الاجتماعي ، ذلك الحوار الذي هو ، تأسيس للوجود بالدرجة الاولى . وعلى جميع القيم الثورية الاخرى ان تتخذ نفس الاتجاه والا فسوف تنتهي من حيث ابتدأت .

وما دامت ذلك الحوار فهي في الحركة ، في العمل الايجابي . فمباشرة العمل سوف تقضي على كل مفهوم تجريدي مرتبط بمعان ليست واقعية لكل قيمة ، او حقيقية انسانية وارضية . فحقيقة الوجود وقيمته تكمن في الوجود نفسه ولا يمكن ان يبررها سواه .

من هنا كان علينا ان نعيد التأسيس الحقيقي ، لاخلاقية الثورة ، فالحقيقة هي اولا مصلحة المجتمع ، وعلى كل قيمة اخرى ان تلتزم وجودها بالنسبة ، له ايضا . فلقد امتصت دماء الجماهير ، القرون الطوال ، تحت راية الحقيقة ، ولقد قتل مئات الشهداء تحت نفس الراية . كما صلب اخرون من مفكرين واحرار ، وكانت الحقيقة ، نيرفانا هائلة من السم والحراب ، وسلاحا ضد التطور والانسان معا . ذلك لانها لم تكن سوى غطاء يمكن للاقوى التحافه ، او لوحة يكتب عليها كل عراف مصيره .

وبامتلاكها لتلك المرونة اقنعت جميع البشر بشرعيتها ، وكان عليهم ان يصوموا حتى يتبين لهم الحكمة منها ، الا انهم لم يفطروا الا حقيقة ، وقليلا من طقوس الخضوع والطاعة . وفي صيحة حكمة الحقيقة ، يرتبط ملايين البشر في معاناة وجودهم اللاشرعي ، كعبيد وخدم ، ثم حديثا كعمال فكيف يمكن للثورة أن تنطلق من نفس المنطلق اذا كانت حقا ، تنبع من ارادة التأسيس الايجابي للوجود الانساني المنخرط في مدار التطور اله العصر .

وهكذا فان قيم الثورة المعاصرة يجب ان تتخذ من الانسان هدفها لا من الحقيقة المجردة ، عندئذ نتوقع دائما للثورة عدم الانحراف ، لاننا حفظنا لها بذلك حرية الخلق المستمر ، والولادة ، حرية الثورة على ذاتها ، دون التفكير لحظة بالتراجع ، لان التحقق سوف يبدد الوقت وسيكون حتى النضال السلبي تحققا ايجابيا ، يعطي فقط وهو في ذلك العطاء يحقق ذاته خطوة فخطوة ، وساعة فساعة .

فمصدر الثورة هو الشعور بالقيمة الذي يدفع العبد والعامل ويجبر السيد على الاعتراف ، وسيكون دفع الثمن غاليا ، لكن الكلمة الاخيرة في المعركة هي للثائر : لانه عندما بدأ من الشعور بالقيمة ، فقد اصبح سيدا ، وسيد ذاته الفعلي . وان نجاح الثورة مرتبط بمدى ما تحققه من هذه السيادة ، حين تضع جماهير الشعب دفعة واحدة امام حريتهم ومستقبلهم ، ووجودهم . اما حينما تنحصر انجازات الثورة في المعركة النضالية ، والمادية ، فانها لا تلبث ان تنتكس ، لانها فقدت محورها الاساسي بفقدانها القضية الاولى في الثورة ، وهي محاولة الجماهير تقييم وجودها على اساس مختلف عن ديالكتيك السيد — العبد في الواقع الفاسد . فالثورة اذن ضد قيم السيادة بمفهومها الاستغلالي والطبقي المهترىء .

انطلاقا من هذه الحقيقة ، نجد انه لا بد من ايديولوجية ، تربط شعارات الثورة ، وتوجهها نحو الهدف الكامن وراءها . فمشكلة وجود ايديولوجية لا تقل خطورة عن مشكلة طرح الشعارات المبدئية للثورة . لانها لا تعني سوى الكشف عن الاتجاه الذي يمكن القوى الشعبية من الالتفاف حوله لترى مستقبلها . ولتبني الطرق التي تمكن الثورة من المضي نحو التكامل ، ونحو فهم ظاهرات التطور العربي .

فأزمة التاريخ العربي عامة ، تنبع من الفصل بين التطور والقيم في المستوى التاريخي ، والحضاري . وان على الثورة المعاصرة ان تعيد لهذا التاريخ ايجابيته ، ووحدته الفعلية باعادة الحوار من جديد على الشكل الثوري والبناء بارتباطه ، ارتباطا فوريا ومباشرا باهداف ومصالح الجماهير . حتى نرى في غبش الواقع الحضاري للمجتمع العربي ، جذور ثورة عارمة وحضارة تنطلق بمكوناتها جميع فئات الشعب في سيره نحو فهم نفسه ، والعالم .

حمص **برهان غليون**

هذا الشهر

كامو والتمرد

بقلم
روبير دولوبية

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

طبعة جديدة من كتاب يدرس فلسفة العبث
والتمرد عند احد كبار مفكري هذا العصر

منشورات دار الآداب